

## ذلك الفلاح

ربيعة حمود.

وعند الظهيرة، كان يفتح صُرْتَهُ النُّظيفةً، فيتناولُ منها رَغِيفَ خُبْزٍ، وبعصًا من الرِّادِ الَّذِي اغْتَادَتْ زوجته على تزويده به. وما إن ينتهي منه حتَّى يرفع رأسه نحو تلك السماء، ويؤتمِّمُ بكلماتٍ شُكْرٍ حفظها عن ظَهْرِ قَلْبٍ. ما إن تُعلنُ الشَّمْسُ رحيلها عن ذلك الأفق الرَّحِبِ، حتَّى يعودَ فلاحنا أدراجهُ بِحُطَّوَاتِهِ الواثِقةِ نحو بيته العزيز، لأعودَ وأتأملَ بَقِيَّةَ مَلامِحِهِ المُعتادة. وفي كلِّ مرَّةٍ كُنْتُ ألاحظُ أمرًا غريبًا واضحًا على مَحْيَاهُ المَعطى بِحُصَلَاتِ شعره الجميلة. ذلك الأمرُ الغريبُ البادي على مَحْيَاهُ الشَّامِخِ أثارَ حَيْرَتِي وأفلقَ مَنامي، وراحتُ تدورُ في رَأْسِي الصَّغِيرِ تساؤلاتٍ وتساؤلات. ثرى؟ لماذا لا يبدو على مَحْيَاهُ التَّعَبَ والإرهاق؟ أَلَا لَهُ سَعِيدٌ إلى دَرَجَةٍ لا يَصِلُ إِلَيْهِ تَعَبٌ؟ أم لَأَنَّهُ راضٍ عن حياته رَضًا لا يَجْعَلُهُ يُفَكِّرُ في تَجْرِبَةِ حَيَاةٍ أُخرى؟

ولكن أشيعُ فضولي رُحْتُ أَرُضُهُ من جديد، عَلَنِي أجدُ إجاباتٍ لِأَسْئَلَتِي. والحقيقةُ أَنِّي لَمْ أَكُنْ أملكُ الشَّجَاعَةَ الكافيةَ لِلتَّحَدُّثِ إِلَيْهِ. معَ أَنَّ أُمِّي كانت تُعْتَمِدُ عَلَيَّ في بَعْضِ المواقِفِ الَّتِي تَتَطَلَّبُ الشَّجَاعَةَ اللازِمة، إلَّا

كان يُسابقُ الفجرَ إلى حقلِهِ البعيدِ من بيوتِ القريَّةِ الصَّغيرة. وعندما يلوخُ من نافذتي كنتُ أقفُ لِأَتأملَه. كان يمشي الهوينيا بخطواتٍ واثقةٍ حاملاً مَجْرَفَتَهُ على كتفِهِ الصَّلبِ. وكلِّما اقتَرَبَ من النَّافِذةِ أَكثر، كانت تبدو لي ملامحُه شيئًا فشيئًا. كان يعتَمِرُ قُبْعَةً سوداءَ تُغَطِّي حُصَلَاتِ شعرٍ سَوْداءَ خالطها بعضُ الشَّيْبِ. تنزلُ على جبينه المَرْتين بتجاعيدٍ صغيرةٍ تحكي حِكَايَةَ عُمُرٍ مَليءٍ بالعملِ والاجتهادِ. وأراه يبتعدُ شيئًا فشيئًا ليَصِلَ إلى حقلِهِ العزيز. كان حقلُهُ قريبًا من حقلنا، لذا كنتُ أتمدُّ التَّزُولَ إلى حقلنا لِمُتَابَعَةِ بعضِ الأعمالِ الخفيفةِ فيه، وكنتُ أَسْتَمْتِعُ بمراقبَتِهِ وهو يعملُ.

هناك، كان يقلِّبُ الترابَ بكفَّينِ قويَّتينِ حائِيتَيْنِ. فلا تستطيعُ أن تدرِكِ أُثُومَها يحبُّ أَكثر: أولادُهُ أم ترابُ أرضِهِ. ثمَّ يندُرُ بُدورَهُ بِمَحَبَّةٍ غَرِيبَةٍ حتَّى إذا ما نبتتُ وأضحَتُ شتولًا وأشجارًا، كنتُ أسمعُهُ يَدُلُّ ثمارها بكلماتٍ يملؤها الحُبُّ. ثمَّ يَصْغُها بكلِّ حنانٍ في سلالٍ عتيقةٍ كانت تُتَسِعُ للكثيرِ منها. كان يعملُ طَوالَ النَّهارِ تحتَ أشعَّةِ شمسٍ مُحْرِقةٍ، تُضيءُ سماءَ زرقاءَ رحيمةً.

• طالبة ماجستير في الجامعة اللبنانية، الفرع الخامس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، قسم اللغة العربية وآدابها.

السّمراء التي لَوَّحَتْهَا أشعَّةُ الشَّمْسِ، فأَعْطَتْهَا لُونًا نادرًا مُخْتَلِفًا؟ أم في عَيْنَيْهِ العَسَلِيَّتَيْنِ العميقتَيْنِ اللَّتَيْنِ تَحْتَزِنَانِ أسرارَ شَخِصِيَّتِهِ النَّادِرَةِ؟ أم في النَّصَارَةِ البَارِدَةِ الَّتِي مَلَأَتْ وَجْهَهُ حَيَوِيَّةً وَحَيَاةً؟ أم أَنَّ هُنَاكَ إِضَافَاتٍ أُخْرَى أَضَفْتُ إِلَى وَجْهِهِ رُونًا وَسِحْرًا مِنْ نَوْعٍ آخَرَ؟ كُلُّ تِلْكَ التَّأْمَلَاتِ عَصَفْتُ فِي رَأْسِي الصَّغِيرِ وَزَادَتْ مِنْ إِضْرَابِي عَلَى فَكِّ لُغْزِهِ.. فَعَرَزْتُ عَلَى انْتِظَارِهِ غُرُوبِ اليَوْمِ التَّالِي. ما إنْ وَضَعْتُ رَأْسِي عَلَى وَسَادَتِي حَتَّى عَرَفْتُ فِي بَحْرِ أَفْكَارِي، وَبَيْنَمَا أَنَا كَذَلِكَ رَثْتُ فِي أُذُنِي نَبْرَةَ 'ذلك الفلاح' وكأَنَّهَا تَتْبَعُ مِنْ زَمَانٍ غَيْرِ زَمَانِنَا. وَأَنْتِ أَمَامَهَا تَخَالُ نَفْسَكَ تَتَفَوَّهُ بِكُلِّ مَا يَحْطُرُ فِي بَالِكَ مِنْ كَلَامٍ. وما بين هذه النَّبْرَةِ العميقة، وَذلك الجَمَالِ الغريبِ، وَتلك الرَّاحَةِ العَجيبَةِ، لَمَعَ فِي رَأْسِي الصَّغِيرِ سَوَالِي المُنْقَدِّ فَتَتَقَسَّمُ الصُّعْدَاءُ، وَنَمْتُ مِلءَ جُفُونِي. ما إنْ لَاحَ الفَجْرُ، حَتَّى جَهَّزْتُ نَفْسِي وَأَسْرَعْتُ إِلَى ذلك الفلاحِ، وَبَادَرْتُهُ بِالتَّحِيَّةِ، فَردَّ بِأَحْسَنِ مَنَها. ثُمَّ سَأَلْتُهُ: 'كَيْفَ يُمَكِّنُنِي أَنْ أَصْبِحَ سَعِيدَةً مِثْلَكَ؟' اذتَسَمَّتْ عَلَى وَجْهِهِ ابْتِسَامَةٌ تَحْمِلُ كُلَّ مَعَانِي الرِّضَا، ثُمَّ أَجَابَ: 'غداً، سَأَصْطَحِبُكَ عِنْدَ الفَجْرِ، بِرِفْقَةٍ عَائِلَتِي إِلَى الحَقْلِ، وَأَطْنُكَ سَتُدْرِكِينَ الإِجَابَةَ بِنَفْسِكَ'. عُدْتُ إِلَى البَيْتِ وَقَلْبِي يَفْفُزُ أَمَامِي، الكَلِّ لَاحِظَ فَرَحَتِي، لا سِيَّما أُمِّي الَّتِي اسْتَعْلَنَتْهَا، وَطَلَبَتْ مِنِّي القِيَامَ بالكثيرِ

أَنَّ هَيْبَةَ ذلك الفلاحِ هَزَمَتْ شَجَاعَتِي. إِلَى أَنْ أَتَى يَوْمٌ عَقَدْتُ فِيهِ العَزْمَ عَلَى انْتِظَارِهِ عِنْدَ الغُرُوبِ، وَمَا إِنْ دَنَوْتُ مِنْهُ حَتَّى شَعَلَنِي أَمْرٌ عَنْ أَمْرِي، فَوَقَفْتُ مُتَسَمِّرَةً فِي مَكَانِي، وَرَحْتُ أَتَأَمَّلُ وَجْهَهُ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ عَنْ قُرْبٍ يَعْينِي البَرِيئَتَيْنِ. بَيْنَمَا رَاحَ هُوَ يُلَاطِفُنِي وَيَسْأَلُنِي عَنْ حَاجَتِي.

- عَلَيْكُمْ السَّلَامُ وَرَحْمَةُ اللهِ. كَيْفَ حَالُكَ

يا ابنتي؟

- بِخَيْرٍ يَا عَمَّ.

- بِمَاذَا اسْتَطِيعُ أَنْ أَخْدِمَكَ؟

- كُنْتُ أَوْدُّ أَنْ أَطْرَحَ عَلَيْكَ سُؤالا.

- تَفْضَلِي يَا ابنتي.

وَرَحْتُ أُبْحَثُ فِي رَأْسِي الصَّغِيرِ عَنْ سَوَالٍ يَحْتَصِرُ كُلَّ تِلْكَ التَّسَاؤُلَاتِ. سَوَالٌ يُنْقِذُنِي وَلَا يُخْرِجُنِي فِي ذَلِكَ المَوْقِفِ المَهْيَبِ. وَلَكِنْ دُونَ جَدْوَى. وَالحَقِيقَةُ أَنَّ هُنَاكَ أَمْرًا لِافْتِنَا زَادَ فِي تَشْتُّتِ أَفْكَارِي المُبَعَثَةِ.

- بِصِرَاحَةٍ. نَسِيْتُ مَا جِئْتُ أَسْأَلُ عَنْهُ.

- لا بَأْسَ يَا ابنتي. مَتَى مَا تَذَكَّرْتِ فَأَنَا فِي حِذْمَتِكَ.

وَلَعَلَّنِي اعْتَنَمْتُ فُرْصَةَ جِوَارِنَا القَصِيرِ هَذَا لِلتَّأَكُّدِ مِمَّا لَفْتَنِي.

فَوَجَّهَ فَلَاحِنَا هَذَا الَّذِي لا تَبْدُو عَلَيْهِ عَلامَاتِ التَّعَبِ تِلْكَ، يَتَمَتَّعُ بِجَمَالٍ غَيْرِ عَادِيٍّ. جَمالٌ لا يُشْبِهُهُ جَمالٌ. جَمالٌ يَجْعَلُكَ تَسْأَلُ رَغْمًا عَنْكَ: أَيْنَ يَكْمُنُ؟ أَفِي بَشَرَتِهِ

ابْتِسَامَةٌ تَحْمِلُ كُلَّ مَعَانِي الرِّضَا. فَيَزْدَادُ إِلَى جَمَالِهِ جَمَالًا. ثُمَّ يَعُودُ فَيَقْلَبُ تَرَابَ أَرْضِهِ بِيَدَيْهِ الْحَانِيَتَيْنِ، فَلَا تُذْرِكُ حِينَهَا إِنْ كَانَ يُحِبُّهُ أَكْثَرَ مِنْ أَوْلَادِهِ. هُوَ لَاءُ الْأَوْلَادِ الَّذِينَ يُشْبِهُونَ الْمَاءَ فِي غُذُوبَتِهِ، وَيَبْتَحَلِقُونَ حَوْلَهُ كَالْحَوَارِيِّينَ. ثُمَّ يُسَاعِدُونَهُ فِي جَنِّي الثَّمَارِ الْمُبَارَكَةِ، وَتَدْلِيلِهَا، وَوَضْعِهَا فِي تِلْكَ السَّلَالِ الْقَدِيمَةِ، الَّتِي تَسْبُغُ لِلْكَثِيرِ مِنْهَا. لِيَبْنِيَهَا إِلَى أَهَالِي الْقَرْيَةِ بِأَسْعَارٍ زَهِيدَةٍ تَكْفِيهِمْ لِعَيْشِ حَيَاةٍ زَهِيدَةٍ بَسِيطَةٍ. وَتُوزَعُ قُسْمٌ كَبِيرٌ مِنْهَا لِلْفُقَرَاءِ وَالْأَيْتَامِ. فِي وَسْطِ التَّهَارِ، فَتَحْتِ رَوْجَتِهِ الصَّرَّةِ الْقَدِيمَةِ التَّظْفِيفَةِ، لِيَتَنَاوَلَ مَعًا مَا لَدَّ وَطَابٍ مِمَّا حَصَّرَتْهُ يَدَاهَا الرِّقِيقَتَانِ. كُلُّ ذَلِكَ وَنَبْرَةٌ صَوْتٌ فَلَا حِنَا الْعَمِيقَةَ، تَبْدُو وَكَأَنَّهَا تَتَّبَعُ مِنْ زَمَانٍ غَيْرِ زَمَانِنَا، وَتُرَافِقُنَا فِي كُلِّ لَحْظَاتِنَا.

لَمْ تُغْلِنِ الشَّمْسُ مَغْبِيَهَا، إِلَّا وَقَدْ اكْتَمَلَ الْمَشْهُدُ أَمَامَ عَيْنَيْ اللَّتَيْنِ لَمَعَتَا حِينَ بَادَرَتْهُ: «الْحُبُّ». ابْتَسَمَ ذَلِكَ الْفَلَّاحُ ابْتِسَامَتَهُ السَّاحِرَةَ، وَهُوَ يَهْزُ بِرَأْسِهِ بِكُلِّ مَحَبَّةٍ. ثُمَّ قَالَ: «الْحُبُّ».

مَنْ الْأَعْمَالِ، وَمِنْهَا شِرَاءُ بَعْضِ اللُّوْازِمِ مِنْ دُكَّانِ الْحَيِّ، وَأَنَا أَنْفَعُ الْمَطْلُوبِ بِكُلِّ حِمَاسَةٍ وَنَشَاطٍ. كَانَ دُكَّانُ الْحَيِّ ضَيِّقًا، لَا يَتَّسِعُ لِأَكْثَرَ مِنْ شَخْصَيْنِ، لِذَا كُنْتُ أَنْتَظِرُ دَوْرِي فِي الْخَارِجِ، وَأَسْتَمِعُ إِلَى حِوَارَاتِ أَهَالِي الضَّيْعَةِ مَعَ صَاحِبِ الدُّكَّانِ أَبِي فُوَادٍ، الَّذِي كَانَ كَعَادَتِهِ يُرْعِغُهُمْ بِشِرَاءِ الثَّمَارِ مِنْ عِنْدِهِ، وَفِي كُلِّ مَرَّةٍ، كَانَ يَسْمَعُ الْجَوَابَ نَفْسَهُ: «نَحْنُ لَا نَشْتَرِي الثَّمَارَ إِلَّا مِنْ عِنْدِ أَبِي مُحَمَّدٍ، لِأَنَّ فِيهَا بَرَكَتَةٌ عَجِيبَةٌ». وَهَذَا الْجَوَابُ لَمْ يَكُنْ يُعْجِبُ صَاحِبَنَا وَلَا غَيْرَهُ مِنْ أَصْحَابِ مَحَالِّ الْخَضَارِ وَالْفَاكِهَةِ عَلَى الْإِطْلَاقِ. فِي طَرِيقِ عَوْدَتِي، تَذَكَّرْتُ كَلَامَ أُمِّي الْمُعْتَادَ وَالْمُشَابِهَ لِكَلَامِ أَهَالِي الضَّيْعَةِ، وَأَحْسَسْتُ بِشُعُورِ قَوِيٍّ أَنَّ أَبَا مُحَمَّدٍ هُوَ نَفْسُهُ فَلَا حِنَا الَّذِي نَتَحَدَّثُ عَنْهُ. فَهَلْ هُوَ حَقًّا نَفْسُهُ؟ كَانَ بَيِّنَ الْفَيْتَةِ وَالْأُخْرَى يَزْفَعُ طَرْفَهُ نَحْوَ تِلْكَ السَّمَاءِ الرَّحِيمَةِ، عِنْدَ ذَلِكَ الْأُفُقِ الرَّحْبِ، فَتَرَى عَيْنَيْهِ الْعَسَلِيَّتَيْنِ تَلْمَعَانِ تَحْتِ أَشِعَّةِ تِلْكَ الشَّمْسِ الْمُحْرِقَةِ. ثُمَّ يُحَرِّكُ شَفَتَيْهِ بِكَلِمَاتِ عَشْقٍ لَا يَفْقَهُهَا أَحَدٌ غَيْرَهُ. وَتَرْتَسِمُ عَلَى شَفَتَيْهِ